

خالد مجتهد خالد

الدولة

في الإسلام



دار تابت

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
يناير ١٩٨١ }

الناشر دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (١) شارع محمد فريد — القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ

وَاحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ

صدق الله العظيم

في عام ١٩٥٠م ظهر اول كتاب لى ، وكان عنوانه :
« من هنا .. نبدا » .

وكان ينتظم اربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : « قومية الحكم »
وفي هذا الفصل ذهبت اقرر أن الاسلام دين لا دولة ، وأنه
ليس فى حاجة الى أن يكون دولة . . وأن الدين علامات تضيء لنا
الطريق الى الله وليس قوّة سياسية تتكلم فى الناس ، وتأخذهم
بالقوة الى سواء السبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه
أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : أن الدين حين يتحول الى « حكومة » ، فان هذه
الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطاق . وذهبت اعدد يومئذ
ما أسميته : « غرائز الحكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على
اقامة البراهين على أنها أعنى الحكومة الدينية فى تسع وتسعين فى
المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وأنها احدى المؤسسات التاريخية
التي استنفدت أغراضها ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى اننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .
وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل
البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة
غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب
ان تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق . .
(٢) ومن خصائصها — كما قلت يومذاك — انها لا تثق بالذكاء
الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها
تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب
الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والحرية والفكر
والاصلاح ليسوا سوى اعداء لله ولرسوله يحاولون نفي الدين عن
المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى
لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا
عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعنى غرائزها — وهى تحفزها الى
مكافحة الراى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصه
نافعه .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان
صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هي سيدة غرائزها وأكثرها عتوا
ونفودا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهي تصيح من فرط نشوتها :
واها لريح الجنة ..

* * *

هكذا ذهبت أنت وأهدم ما أسميته يومها بالحكومة الدينية .!
وهكذا أخذت كل خصائص ونقائص الحكم الاتقراطى
الديكتاتورى وخلعته على ما أسميته « الحكومة الدينية » .. !!
ولم أكن يومئذ أخدع نفسى ولا أزيف اقتناعى ، فليس ذلك
والحمد لله من طبيعتى . إنما كنت مقنعا بما أكتب مؤمنا بصوابه .

وحين أرجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى
وهذه الكلمات لا أخطىء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهذا
التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب
وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا ان يهتدى الى الصواب
ويقترب من الحقيقة ويعانقها فى يقين جديد ، وحبور أكيد ، ونحن
مطالبون بأن نفكر دائما ، ونراجع أفكارنا ، وننكر ذواتنا ونتخلى عن
كبريائنا أمام الحقائق الوافدة .. واذا لم نعمل فسنكون كما قال
« افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد ان نفكر .. » !!

« وعبيد اذا لم نجرؤ ان نفكر .. » !!

* * *

وأحمد الله على انفى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد . . ومن أجل هذا كان من اليسير على أن أستقبل في بشر ومودة هذا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التأمل والتمعن وتقليب وجوه النظر في حيايد سيد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى أوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، أو بتعبير أصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى أفضت بى الى ذلك الموقف . . ؟؟

وأود — أولاً — أن أشير الى أن تسمية « الحكومة الإسلامية » بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلاً ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل أبشع استغلال فى دعمه وفى إخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت أغراضها سياسية ، وأصلت الناس سعيراً بسوء تصرفاتها وتحكمها . . وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الإسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعل أول خطأ تفشى منهجى الذى عالجت به قديماً قضية الحكومة الدينية ، كان تأثرى الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثاراً تغطى به غريبها وعلرها . .

أجل . فأنى أستطيع أن أخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين — كان هذا اولهما . . . التائر بما قراته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدى اقول فى كتابى « من هنا نبدا » .

« . . . ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الأذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت أهوال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا — هو الحجاج — أباد البقية الكريمة الصالحة من صحابة رسول الله ، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز» « لو جاءت كل أمة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى أمية بالحجاج وحده لرجحناهم . . . !! »

اذن ، فقد كنت فى قمة التائر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام وأعتبرتهم حكومة دينية اسلامية . . . !!

ومضيت ادحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاسلام بنفس القوة التى ادحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيسة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى . . . ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع أى حاكم أن يستمد منه سلطانا مطلقا وفي ذات الوقت يكون مقدسا . . ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت تديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطأ .

ان الاسلام حتى في فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح ايا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاي كهنوت لا في تعاليمه ولا في تطبيقاته .

من أجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها أمر مجاف لكل صواب . .

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظر .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال أسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة في أوج مجدها الباهر ، لاندري هل انبثق منها، او أقحم عليها وتسلسل اليها ما سمي يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاعتيالات لفرض الدعوة . . الدعوة التى كانت قد حققت بالاقناع والمنطق ما لم تحققه

دعوة أخرى . . والدعوة التي كانت لباقه مرشدها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الأذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقتهم .

لفتت حوادث الاغتيال التي مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفتئدتهم . وكنت من الذين أقض مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسي اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيديون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟ !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما اعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما اعتقده والا قتلتك » !!!

على ان ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما افتترفه الجهاز السرى باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . ففسد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة . . جعلت هذا
وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وفارق كبير بين ان
تجعل الحدث أو الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك فانه يقودك في طريقه هو ، لا في
طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا
الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه في
تمعنها ودراستها .

أما حين يكون الشيء موضع تفكيرك فانه يمد تفكيرك المحايد
والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم
مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته — قديما —
من حكم ضد الحكومة فى الاسلام ، هذه التى اسميتها بالحكومة
الدينية .

- ٢ -

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بأن الاسلام « دين ، ودولة »
فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما شكل هذه الدولة ؟؟
وما اغراضها واهدافها حين تقوم ؟؟
أما التقائى بهذه الحقيقة ، او لتتواضع ولنقل هذه النتيجة . .
فقد جمعنى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التي حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت القضية بعقل غير عصى ، ونفس تواقاة الى معرفة الحق واعلانه بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة أو خجلا من أن تعترف بالخطا وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل أن يكون هناك اسلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب هم الرعييل الاول الذي حمل راية الاسلام ، وسار بها مشرقا ومغربا . . فهل كان اولئك العرب عنصرا مهيا لان ينشئ « حكومة » او يتقبل تبعاتها ويحملها في اقتدار . . ؟؟

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فأسسوا دولا وحكومات ؟

انه على فرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة .

ذلك أن الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميمة وشاملة . . جاء فغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فان الاسلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الاسلام اول ما نزل عليهم وفيهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن أنشأوا الممالك والامارات .

فقبل مجيء الاسلام بقرون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين أنشأوها ، وحنسارة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) :

كان في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها اطلال المباني الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التي وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقي .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » في الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها في الظهور مملكة سبأ التي اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم في ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « أوغسطس قيصر » عن أسوار مأرب ودحرتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل . . ولا تزال سدودها وأحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين . وتدل آثارها واطلال ابنتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد .

وكان لها اسطول بحري ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وفسان ، قامتتا على حدود
بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على
حرب الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمرأ غسان على
الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى
ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير في الحضارة العربية . وتعاقب
على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه « حضارة العرب ومراحل
تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة في
حوالى اربعين ألف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى في حوالى
ثمانية عشر ألف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة
ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون في شئون البلاد
العربية أن الهجرة من جزيرة العرب تمت في الاصل من
منطقة جنوبى الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة
من جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على اطراف
الهلال الخصيب فى فلسطين وسورية ومصر والعراق ..
« وفى هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل
العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما في وطنها الاصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة . . فأسست هذه القبائل في مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم في تاريخ البشرية اى الامبراطوريات الساميات الاربعة : الاكدية ، والبابلية ، والآشورية ، والكلدانية الآرامية . .

« ان الهجرات المتتالية التى انبعثت من جزيرة العرب كانت من أهم العوامل فى تقدم الكيان الحضارى فى الشرق الأدنى والسريبه نحو التطور فى مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه أقدم الامبراطوريات واعظمها فيما عرفه التاريخ . .

« فالجزيرة العربية اذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ما وراء الصحارى . . ونهى والحالة هذه ينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية فى الهلال الخصيب . . « وكانت مستوطنات شعب الجزيرة فى عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية « الام » وأبنائها فى بلاد المهجر . .

« لقد كان هؤلاء العرب بناة اعظم واقدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهى الامبراطورية الاكدية التى
أسسها « سرجون » فى القرن الرابع والعشرين قبل
الميلاد والى سميت بالاكديية نسبة الى عاصمتها « أكد »
« وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت
فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا
رئيسيا وهاما فى تقدم الحضارة الانسانية . .

« ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المند
والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الفساسنة فى
سورية ، والمناذرة فى العراق ، ودولة الأنباط والتدمريين
وغيرها من الامارات العربية كإمارة كندة ، وإمارة الحضر
وإمارة الرها ، وإمارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام
فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى أوسع وأعم ،
وعادت فانبعثت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب)
وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التى سبقها
بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوروبا)
. . وقد حاولت أوروبا المسيحية قهر الحضارة العربية
الاسلامية وابادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت
حوالى مائة وخمسين عاما » .

ويختتم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذى يقول :
« سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من
التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الاقل قبل أيام
اليونان ثم فى العصور الوسطى أربعة قرون تقريبا

وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم
ثانية في المستقبل القريب أو البعيد .

* * *

اذن كان هناك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية
أيام كانت « أوربا » وما حولها مغارات وكهونا ، وظلاما في ظلام .
واذن ، غالبية التي نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق
وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .
ونحن نعلم ان الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصعيدا . تغييرا
للباطل ، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق .
ولم يكن العرب في عصور الجاهلية الموغلة في البعد ، بقادرين
على ما يعجز عنه أسلافهم في ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .
وحتى مكة — غيما بعد — والتي لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد
قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وأغذاذ رجالها
فكانت قوى المجتمع هي التي تحكم وتقود في تنظيم ناضج وسديد .
والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام اليها تنهيا لتتويج ملك عليها
وإذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما . .
وهكذا لم يكن الاسلام يعمل في خواء ولا يبدأ من فراغ حين
يدعو أتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدأ بالفعل في تأسيس دولة
وقف على رأسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله اجمعين .